ما غاية الزهد ؟

إذا كان الإسلام قد اهتمَّ بالقناعة والزهد إلى هذا الحدِّ ، فهل ذلك لغايةٍ فردية ذاتية فقط ؟

الأمر أكبر من ذلك بكثير ، فإضافةً إلى تربية الفرد المسلم ، هدف الإسلام إلى شيئين رئيسين من وراء الزهد هما :

١ـ العدل : وهذا أسمى ما تريده القوانين ، وأغلى ما تطمح إليه الشعوب ، وقد رأينا في مسيرة الدعوة الإسلامية منذ نزول الوحي على قلب سيدنا محمد صلوات الله عليه ، وحتى الوقت الحاضر ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، أن الزهد خير وسيلةٍ لتسليح المؤمن بالقدرة على إقامة العدل وإحقاق الحق ، وهذا الكلام على جميع الأصعدة (في المال ، في الحكم والإمارة ، في الحياة الأسرية ، في علاقة الأفراد بعضهم ببعض ، في علاقة المسلمين مع سائر الأديان الأخرى . .) .

ولن أضرب هنا الأمثلة الكثيرة ، بل سأكتفي بمثال واحد عن سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه ، حيث كان يرى الإمارة عبارة عن وسيلة لإقامة الحق ودفع الباطل ، ولم تكن الإمارة بنظره سُلَّماً يرتقي بها على عباد الله ، ولم تكن غاية لسحق الخصوم والمعارضين والأعداء ، ولم يكن ليصل إليها عن طريق الجماجم والرؤوس .

مطلقاً . . . فمن خلال الزهد حقَّق العدل المنشود ، ها هو ذا يُصلح نعله ذات يوم فيقول لمن حوله : لَهِيَ أحبُّ إليَّ من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقّاً ، أو أدفع باطلاً! إنه يرى الإمارة أقلَّ قيمة من هذا النعل الذي يصلحه ، إلا أن يُحِقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطل ، وهذه غاية العدل .

٢ـ عصمة النفس : ضمن المستطاع ، وقد ورد على لسان الإمام علي

رضي الله عنه قوله : إنما هي نفس أروِّضها بالتقوى ، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر .

وهذا ليس إذلالاً لإنسانية الإنسان ، بل هو ارتقاء به إلى أعلى درجات الكمال .

* * *

الخلفاء الراشدون الورعون :

لما تولى أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه خلافةَ المسلمين ، حمل أقمشته على كتفه وخرج ليبيعها ، وكان يتعيَّش قبل الخلافة من تجارة القماش ، فلقيه في الطريق عمر رضي الله عنه فسأله : أين تريد ؟ قال الخليفة : السوق يا عمر! قال : تصنع ماذا وقد وُلِّيت أمر المسلمين ؟ قال : ومن أين أُطعم عيالي ؟!!

قال عمر : انطلق إلى خازن بيت المال ـ وكان وقتها أبو عبيدة ـ ليفرض لك مرتَّباً ، وينطلقان ، فيقول أبو عبيدة للخليفة : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين وكسوة الشتاء والصيف ، وهكذا فرض له أربعة آلاف درهم في السنة!!

لكن لما حضرته الوفاة قال : إذا أنا متُّ خذوا من مالي ثمانية آلاف وردُّوها إلى بيت المال!!

ويصل الفاروق إلى سُدَّة الحكم ، وتُفتح في زمنه البلاد ، وتفيض الأموال ، لكن عمر كان يقول : لا يحلُّ لي من مال الله سوى كسوتين للصيف والشتاء ، ومعاش رجلٍ من أوسط قريش يأخذه لعياله ، وأنا بعد ذلك رجلٌ من عامَّة المسلمين .